جنكيز ايتماتوف
الكاتب الذي
يحمل وسام
« بطل العمل الاشتراكي »

جنكيز ايتماتوف في « وداعا يا غولساري » :

تطور ايجابي وهام في مسيرة الادب السوفياتي الطويلة عندما يلتقي النقد الحق مع الالتزام الصدق، نصل الى الفن الاشتراكي

عندما كتب روايته « الشراع الابيض » قامت ضجة كبيرة في الاوساط الادبية ، في الاتحاد السوفياتي .
هل المؤلف ملتزم حقا بمسيرة الاشتراكية ، هل هو اديب سوفييتي ، ام لا ؟
وانزاحت غيوم الشك ، بعد طويل درس ونقاش ، واعتبر جنكيز ايتماتوف من اعظم الكتاب السوفييت في العصر الحديث ، ومنح وسام بطل العمل الاشتراكي .

الواقع اني لم اطلع على « الشراع الابيض » ولم اقرا له حتى الآن سوى « جميلة » و « وداعا يا غولساري » . الا ان هذا الاخير ، دفع بي الى طلب كل مؤلفاته ، لدراستها كاملة . فنحن امام حقبة ادبية جديدة يمثلها المؤلف كما يبدو .

غولساري ، هو بطل رواية ايتماتوف (٣٥٢ ص ــ ترجمة دار التقدم) وهو حصان رهوان اشقر . اما بطلها الآخر تاباياي الراعي ، فهو من اوائل الذين انضموا الى مسيرة الاشتراكية وظل مخلصا لها حتى النفس الاخير من عمره الذي امضاه في الكفاح لتحقيقها، حتى بعد انتصار الثورة البلشفية .

اهمية هذا الكتاب تكمن في انه يؤكد ، وقبل اي شيء ، على ان النضال الحقيقي في سبيل الاشتراكية ، يبدأ بعد انتصار الثورة وسلمها للسلطة ، حيث يكون هنا ، ضد الموصوليين ، والمتنفعين ، والقادة البيروقراطيين . في الوقت الذي يجب العمل فيه ، على تحقيق الانجازات الضرورية لتحقيق رفاهية الانسان وسعادته ، الهدف الاخير لكل ثورة وفلسفة .

تاباياي الراعي ، يظل اذن ذلك المناضل العنيد ، وكلما ساءت احوال الرعاة او المراعي ، تعرضت التجربة في احد الكولخوزات للفشل، استدعي صاحبنا، للاسهام في عملية الانقاذ وتصميم مسار الاشياء . فيلبي طواعية ، حيث يحكي لنا عن مرير معاناته ، في الجبال البعيدة ، أيام الطبيعة القاسية وثلوج الشتاء . وان يكن ، قد فقد اعصابه في احدى المرات ، فانهال ضربا على احد المسؤولين الذي جاءه بعد غياب طويل ، في معطف و « قلبق » وجزمة من الفرو ، في الوقت الذي يعاني فيه هو وقطعانه ، المرض والموت في مواجهة الطبيعة القاسية ، وقد جاءه هذا المسؤول ، ليلقنه لائحة الحقوق والواجبات . بدل ان يأتيه بالمساعدات المطلوبة ، او يشاركه فيما هو فيه من معاناة . وقد أدى ذلك الى هروبه من الحزب طبعا . ولم يعد اليه اعتباره الا قبيل نهايته . وقد كانت صفحات معممة بالاسى ، والمرارة الحقيقية ، والصدق .

أما غولساري ، فقد استطاع المؤلف ، من خلاله ، وقبل علاقة الراعي تاباياي به ، ان يقدم لنا تراجيديا انسانية كاملة ، تنتهي ولا ريب ، برغم كل المصاعب والمناقضات ، الى انتصار الحقيقة النهائي ، رغم كل المتاعب ...

كيف عاش في المراعي ، صفاته ، اخلاقه ، مزاجه ، عواطفه ، ثم كيف اقصي عن صديقه ، حيث « خصاه » احد المسؤولين المتحزبين ، ثم كيف ارغم فيما بعد على جر العربات ، وكيف ظل وفيا لحبه القديم ، لمرس حمراء سوداء العنين ، تماما كما اخلص فارسه لقصة حب قديمة عايشه في تفاصيلها .

غولساري الحصان ، في الرواية ، اغنى من كل النماذج الانسانية ، التي قرانا عنها في روايات اخرى، وربما على امتداد نصف قرن من الزمان .

بكمل كل هذا الرسم الرائع للشخصيات ، وكل هذا التشخيص الرائع لتجربة انسان اشتراكي رائدة ، بنقد بجراة ما لها حدود ، كل النقائص في التجربة ، ليؤكد في النهاية على انتصار الخط الصحيح . بكمل كل هذا لغة ولا أروع ، سلاسة ، وحسن تسلسل وسهولة تناول ، على شيء كثير من العمق .

ورغم كل « الوجبات الدسمة » التي حاول ان يقدمها لنا الغرب خلال اكثر من نصف قرن من الزمان ، بان السوفييت يهمهم ان يطمسوا معالم الماضي ، فان ايتماتوف ، يكرس اجمل عادات قبائل القرقيز التي ينحدر منها البطل ، كسباقات الخيل والعاب الفروسية ومهرجان اختطاف الطريدة ... الخ .

كما يقدم لنا أروع النماذج عن الاغاني الشعبية العتيقة ، المفعمة بالحزن ، والتي فيها الكثير من الوجع والانين اللذين نجدهما في الاغنية العربية ، في ظل الظروف الاجتماعية غير الطبيعية في المجتمع العربي.

لا باس في هذا المجال من استعراض مقطع من اغنية « نواح الناقة » التي كلما الم به حزن شديد ، طلب من جابدار أن تأخذ الآلة الموسيقية العتيقة « النمر ــ كاموز » لتغنيها له . انها اغنية الناقة التي اضاعت حوارها الابيض :

« تركض الناقة أيامًا كثيرة
تبحث وتنادي وليدها
أين انت أيها الحوار
الاسود العينين .
أجب !
فالحليب يتدفق من الضروع
من الضروع الممتلئة
ويشخب جداول على القديمين
أين أنت ؟ اجب
يجري الحليب من الضروع
من الضروع الممتلئة
.. الحليب الابيض .. » .

انها عودة ، الى ايام الرعاة القدماء ، والى وصف حالة لا يعرفها الا القبائل ، حالة الناقة عندما تفقد رضيعها « حوارها » يعرفها جيدا اهل البداوة في الصحراء العربية ، حيث يملأ انينها الصحراء ، حتى لذهبت مثلا يضرب لكل امراة تكلى فقدت وليدا ، عزيزا عليها او حبيبها : « بسش تعنين عفره مضعمة حوارش » . ولبت ان المجال يتسع ، لاجراء مقارنات ، بين عينات من « وداعا يا غولساري » وأخرى « عالم الرعاة في الصحراء العربية ... » .

ــ ... ــ

القسم الثاني

نهد محيي الاسدي

في سبيل الوطن... رواية أم صنعة راوٍ ؟!

٢ ــ الفصل الثاني يعرفنا على هذا الشاب باعتباره ابن الرجل صاحب العربة التي اعترضت سير موكب الحاكم ، وهو عضو في جمعية النهضة الاسلامية السرية ، اسمه (فاضل) وهو رهن الاعتقال ولا يجد ابوه وسيلة لتخليص ابنه سوى الذهاب الى (الجمعية) التي ينتمي اليها ابنه ويقول لهم في اجتماعهم (حضرات العلماء الافاضل .. ولدي فاضل وقف بوجه حكومة الاحتلال ولا اظنكم تسكون مواقفه، والذي ارجوه ان تشملوه بعطفكم وتعملوا على انقاذه مما هو في مصيبه) ص٢٢ البست مثل هذه الطريقة في التعبير وصياغة الحوار بمصيبة ؟ ولا سوقف الكاتب عند هذا انما يخرج علينا بصيغة اخرى ابتداء من هذا الفصل الى نهاية (الرواية) ــ في سياق الرواية وكأننا نستمع لاحد يحدثنا حديثا ما عن مجموعة من الاحداث على طريقة (الرواية الحكواتي او القصخون) عندما ينتقل في هذا الفصل من مستوى حدث الى مستوى حدث آخر فيقول (والان لنترك الحاكم ونعود الى السجين فاضل وما آل اليه من أمر وكيف استطاع ان يخرج من زنزانته ويختفي بتلك السرعة) ص٢٥ . أيقصد الكاتب (القريب) أم ان غرابة فن كتابة الرواية هي التي تستدعيه .؟!

٣ ــ في الفصل الثالث يقتل (ابو فاضل) على يد القبضاي (سالم) ويعمد الكاتب الى تصوير شخوص ، وسبك حوارات تضيع وتربك القارىء وتحمله نافرا من هكذا محتلين ، على هذه الطريقة الكارتونية بحيث لا يستاهلون ان يناضل الانسان ضدهم ان كانوا على هذه الشاكلة ، والمشهد التالي من حدث (الحاكم) السكرتيرة في محاولة التثور على وسيلة لالقاء القبض على السجين الفار (فاضل) بعد ان استطاع الهرب من السجن :

(ــ ولكن من سترسل ليقوم بهذه المهمة ؟
ــ أعرف أحدا من أهل النجف .

صاح الحاكم : من أهل النجف . كيف قبل ان يقوم بالعملية وانا عرفت فيهم الاخلاص لوطنهم والف لنا) ص٢٩ .

٤ ــ في الفصل الخامس نطلع علينا شخصية (هدى) على حين غفلة وكأنها شخصية تمتلك امتدادها الطبيعي والاجتماعي والنفسي في احداث الرواية ــ لتجلس قبالة (فاضل) وتحكي معه عن الحياة القادمة ! وامكانية مقاومة العدو المحتل والحديث لـ (هدى) : (آه كم بودي ان اقضي بهاتين اليدين على المجرم الذي كان السبب في هذا الاحتلال) ص٤٩ .

من هي (هدى) ، ومن أين جاءت ، ومتى تعرفت على (فاضل) وما هي علاقتها به ؟ لا احد يدري سوى كاتب (الرواية) .

٥ ــ في الفصل السادس تقدم الى مدينة (النجف) قافلة للجنود الانكليز يرأسها قائد ومجموعة من الضباط .. اذا بالقافلة تختفي بثنايا هذا الفصل بعد أسطر قليلة . كيف اختفت ؟ بجيب (الروائي) في مكان آخر وقبل نهاية الفصل ان (سالم) وبعض الرجال وبتخطيط من (فاضل) استطاعوا الايقاع بالقافلة وكأننا بنادرة من نوادر (جحا) . فهذا (سالم) يقفز الى طريق سير القافلة وهو يتباكى تمثيلا :

(ــ النجدة .. النجدة يا سادة .

فلما ابصره القائد أمر بايقاف السير ثم خاطب (سالم) بلغة انكليزية فلم يفهم (سالم) شيئا مما قال وتظاهر بالغباء) ص٦١ ، وهكذا ينتهي قائد القافلة و ١٥٠ جنديا فيباغتهم (فاضل) ونفر من رجاله باسلحتهم البدائية فيبيدوا وياسروا القافلة (اللهم صلي على محمد ..) .

وهكذا تجري حوادث هذه (الرواية) وعلى هذه الطريقة بسيناريو عجيب ينتهي الى قضية واحدة مفادها : انه يجب قتل الحاكم العسكري ، ويقتل الحاكم بطريقة لا تحسد عليها الا الطرق السينمائية الرديئة ، وبعد ذلك يؤتى بحاكم عسكري جديد لمدينة (النجف) والحاكم الجديد يعتمد طريقة جديدة للايقاع بـ (فاضل) من خلال اختطاف (هدى) التي لا نعرف لحد هذه اللحظة شيء عن طبيعة علاقتها بـ (فاضل) ! ويستطيع (فاضل) اخراجها من السجن على طريقة « عنتر وعبلة » او على شاكلة أي مقطع رديء من الافلام المصرية التي لا تبقي ولا تذر من أشكال التفنن الفظيعة في امكانية ايجاد الحلول لاصعب المشاكل وأعقدها بقدرة قادر !

وفي الفصل قبل الاخير ينسى الكاتب أن (النجف) والعراق باكمله كما بدأ في مستهل (روايته) هو في ظل الاحتلال الانكليزي ، ويعود بسابق اصرار في هذا الفصل ليقول على لسان حاكمها العسكري وهو يحدث جنوده :

(يجب أن تسقط النجف .. ان تسقط ويحتلها جنودنا) ص١١٧ لينتهي الفصل بصيغة اخبارية موجزة كأنها منطوقة على لسان مذيع (عزز النجفيون جميع قواتهم واخذت الطائرات تضرب .. الا ان النجفيين قاموا بهجوم معاكس ..) ص١٢٠ الى آخره من هذا الحشو الملاك .

وهكذا تنتهي صفحات هذه (الرواية) بسياق ساذج لا يجسد بطولة الرجال ولا نساء العراقيين ابان قيام (ثورة العشرين) ولم يستطع ان يستلهم ولا اي شكل من اشكال نضال الانسان العراقي في تلك الفترة بالقدر الذي حط بتلك الافعال التي اخترعها اختراعا بعيدا عن روح الوثيقة التي افترض انه يستند اليها ، وعن الواقع وعن ممكنات خيال المبدع .. ولم يستطع اعادة صياغة حادثة واحدة بروح شفافة وواعية بحيث تمسك بممارسة واحدة . فكيف بنا اذا قلنا : ان تجربة « ثورة العشرين » لم تكن الا واقعة تاريخية لن تستوفى شروطها الفنية والذهنية الا بافق ملحمي يتناسب وفاعلية الاحداث بجموع الثوار من الفلاحين ، الشباب الوطني ، ورجال الدين الذين ساهموا بافعال واقعية صادقة .. ولا نستطيع الا أن نقول : ما كان لك الحق يا أيها (الروائي) أن تكتب لنا هذا !

■

صدر حديثا

ضمن سلسلة اصدارات « دار الفارابي » صدر حديثا عنها في سلسلة الشعر العالمي كتاب من شعر بابلو نيرودا عربه حسن حماده واحمد موسى .

كذلك صدر عن نفس الدار حياة غالبليه لـ « برنولد بريشت » وهي مسرحية عربها بكر الشرقاوي .